# ٦٢ أحضروا حُجَّتكم

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ

**« يَحْشُرُ اللهُ الْخَلْقَ .. ثُمَّ يُنَادِي :**

**يَا عبَادي أَحْضرُوا حُجَّتَكُمْ ، وَيَسِّرُوا جَوَابَكُمْ ،**

**فَإِنَّكُمْ مَجْمُوعُونَ مُحَاسَبُونَ مَسْئُولُونَ ،**

**يَا مَلائِكَتي .. أَقيمُوا عبَادي صُفُوفاً عَلَى أَطْرَاف أَنَامل أَقْدَامهمْ للْحسَاب »** (١)

يُحدِّثنا الله تبارك وتعالى في هذا الحديث القدسي عن حَشْر الخَلْق للوقوف بين يديْ الله ، لن يتخلف أو يفرّ منهم أحدٌ ، يقول تعالى ﴿ وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [ الكهف ] ، ويقول تعالى : ﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [ الذاريات ] .

(١) أورده المتقي الهندي بنحوه من حديث معاذ في كنز العمال ( ج ١٤ / حديث ٣٨٩٩٢ ) ، وهو في الإتحافات السنية ( ٤٢٥ ) ، وهو مما يشير إليه السيوطي بالضعف .

أي : أن الحقَّ جل جلاله يريدنا أن نعرف يقيناً أننا لا نستطيع أنْ نفرَّ من علمه ، ولا من قدره ، ولا من عذابه .. وأن الطريق المفتوح أمامنا هو أن نفرَّ إلى الله ، وأنه لا منجاةَ من الله إلا إليه ، ولذلك لا يظن كافر أو عاص أنه سيفلت من الله ، ولا يظن أنه لن يكون موجوداً يوم القيامة ، أو أنه لن يُحاسب أو أنه يستطيع أنْ يختفي .

إن غرور الدنيا قد يركب بعض الناس فيظنون أنهم في منعة من الله ، وأنهم لن يُلاقوه . نقول لهم : إنكم ستُفاجأون في الآخرة حين تعرفون أن الحساب حق ، والجنة حق ، والنار حق ، ستُفاجأون بما سيحدث لكم ، ومَن لم يؤمن ولم يسارع إلى الخير سيبقى له الخزي والعذاب الأليم .

إن الله ينصحنا أن نؤمن وأن نسارع في الخيرات لننجو من عذاب الله ، ويقول لنا : لن يفلتَ واحدٌ منكم ولا ذرة من ذرات جسده من الوقوف بين يدي الله للحساب .

لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى عن نفسه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [ البقرة ] أي : أن الله سبحانه وتعالى لا يعجزه شيءٌ ، ولا يخرج عن طاقته شيء .. إنه سبحانه على كل شيء قدير .

وقد أعطانا الحق سبحانه وتعالى صوراً متعددة ومشاهدَ مختلفة ليوم القيامة ، فأعطانا صورة للمعبود الباطل ، وللعابدين للباطل ، وما حدث بين الطرفين من جدال ونقاش ، وأعطانا صورة لمَنْ تعاونوا على الشر ، ولمَنْ تعاونوا على الخير .

ومن هذه الصور التي ذكرها الحق سبحانه هي صورة حشْر المتقين ، فيقول تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [ مريم ]

والوفد هم الجماعة ترِدُ على الملك لأخْذ عطاياه ، وجمعها وفود ، والواحد وافد ، وهذه حال المتقين حين يجمعهم الله تعالى يوم القيامة وَفدا لأخذ عطايا ربهم تبارك وتعالى ، ولا تظن أنهم يُحشرون ماشين مثلا ، لا بل كل مؤمن تقي يركب ناقة لم يُرَ مثل حُسْنها ، رَحْلها من ذهب ، وأزمّتها من الزبرجد .

وفي المقابل يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [ مريم ] والسائق يكون من الخلف ينهرهم ويزجرهم ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾ [ الطور ]

فهناك مَنْ يدفعهم إلى النار دَفعاً ، ونجد في حياتنا ــ ولله المثل الأعلى ــ الشرطيَّ يمسك بالمجرم من ملابسه ويدفعه إلى السجن .. ذلك هو الدَّع ، وهكذا يكون قول الحق سبحانه : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ بضم التاء وفتح الجيم ، أي : أنه مدفوعٌ بقوة قاهرة إلى النهاية ، فهم يُدفعون إلى النار ، ويُضربون على أقفائهم ، ويُساقون سَوْقَ الدواب .

والحق سبحانه يقول : ﴿ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [ القصص ] فالآخرة ما كانت إلا للحكم وللفَصْل في الخصومات ، حيث يعرف كلٌّ ما له وما عليه ، فلا تظن أن الذين آذوْكَ وظلموك سيُفلتون من قبضتنا .

فهم يُرجعون للحساب وفي قراءة ﴿ تَرْجِعُونَ ﴾ بفتح التاء ، لأنهم سيرجعون إلينا ويأتوننا بأنفسهم ، كأنهم مضبوطون على ذلك ، كالمُنبه تضبطه على الزمن ، كذلك هم إذا جاء موعدهم جاءونا من تلقاء أنفسهم دون أنْ يسوقهم أحدٌ .

وعلى قراءة ﴿ تُرْجَعُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ القصص ] فإياكم أن تظنوا أنكم بإمكانكم أنْ تتأبَّوْا علينا ، كما تأبيتم على رسلنا في الدنيا ، لأن الداعي في الدنيا كان يأخذكم بالرِّفق واللين ، أما داعي الآخرة فيجمعكم قَسْراً ورغماً عنكم ، ولا تستطيعون منه فكاكاً ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾ [ الطور ]

ويُحدِّثنا تعالى عن الحشر ، فيقول : ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [ طه ] والصُّور هو البوق الذي يُنفخ فيه النفخة الأولى والثانية ، فإذا جاءت النفخة الثانية نجمعهم ونسوقهم زُرْقاً ، والزرقة هي لونهم كما ترى شخصاً احتقن وجهه ، وازرقَّ لونه بسبب شيء تعرَّض له ، هذه الزُّرْقة نتيجة لعدم السلام والانسجام في كيماوية الجسم من الداخل ، فهو انفعالٌ داخليٌّ يظهر أثره على البشرة الخارجية ، فكأن هَوْلَ القيامة وأحداثها تُحدثُ لهم هذه الزُّرقة .

وانظر إليهم ﴿ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ [ طه ] أي في هذه الحال التي يُحشرون فيها زُرقاً ﴿ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [طه]

أي : يُسرُّون الكلام ويهمس بعضهم إلى بعض ، لا يجرؤ أحدٌ منهم أنْ يجهر بصوته من هَوْل ما يرى ، والخائف حينما يُلاقي من عدوه مَا لا قبلَ له به يُخفي صوته حتى لا يُنبهه إلى مكانه . أو : لأن الأمر مَهُول لدرجة الهلع الذي لا يجد معه طاقة للكلام ، فليس في وسعه أكثر من الهمس .

فما وجه التخافت ؟ وبمَ يتخافتون ؟

يُسرُّ بعضهم إلى بعض ﴿ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ [ طه ] يقول بعضهم لبعض : ما لبثنا في الدنيا إلا عشرةَ أيام ، ثم يُوضح القرآن بعد ذلك أن العشرة هذه كلامهم السطحي ، بدليل قوله في الآية بعدها : ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [ طه ]

فانتهت العشرة إلى يوم واحد ، ثم ينتهي اليوم إلى ساعة في قوله سبحانه وتعالى حكايةً عنهم ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [ الروم ] ، فكلُّ ما ينتهي فهو قصير .

إذن : أقوال متابينة تميل إلى التقليل ، كأن الدنيا على سَعة عمرها ما هي إلا ساعة : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [ الأحقاف ]

وما هذا التقليلُ لمدة لُبْثهم في الدنيا إلا لإفلاسهم وقلَّة الخير الذي قدَّموه فيها ، لقد غفلوا فيها فخرجوا منها بلا ثمرة ، لذلك يلتمسون لأنفسهم عُذراً في انخفاض الظرف الزمني الذي يسع الأحداث ، كأنه لم يكُنْ لديهم وقتٌ لعمل الخير .

حيث تخشع الأصواتُ للرحمن مصداقاً لقول الحق : ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [ طه ] ، ونعرف أن كل تجمُّع كبير لا تستطيع أن تضبط فيه جلبة الصوت ، فما بالك بجمع كجمع القيامة من لدن آدم عليه السلام حتى قيام الساعة ، ومع ذلك : ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [ طه ] ، فلماذا كتمت هذه الأصوات التي طالما قالت ما تحب ، وطالما كان لها جَلَبة وضجيج ؟

الموقف الآن مختلف ، والهَول عظيم ، فلا يجرؤ أحدٌ من الهَول على رفع صوته ، والجميع كلٌّ منشغلٌ بحاله . تفكّر فيما هو قادم عليه ، فإنْ تحدّثوا تحدّثوا سرا ومخافتةً : ماذا حدث ؟ ما الخبر ؟

والمستمع إلى الحق سبحانه ، وهو يصف اللحظة التي يخرج فيها الناس من قبورهم عند البعث والنفخ في الصور النفخة الثانية ، فيقول تعالى :

﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [ يس ]

والصور هو البوق الذي ينفخ فيه إسرافيل ، وهذه هي نفخة البعث ، وتسبقها نفخة الصعق التي تُميتهم وتخمدهم ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ

أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [ الزمر ] فإن قلت : النفخة واحدة ، فلم تُميت الأولى وتحيي الثانية ؟ نقول : النفخة في الصور ما هي إلا حدث للحدث ، أما الفاعل على الحقيقة فهو الله سبحانه وتعالى ، فهو الذي يميت في الأولى ، ويُحيي في الثانية .

ومعنى ﴿ ٱلْأَجْدَاثِ ﴾ : القبور . ومعنى قوله : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [ يس ] أي : يُسرعون ، فإذا ما خرجوا من قبورهم وراوا الحالة التي ظالما كذّبوها قالوا : ﴿ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [ يس ] هم الذين يقولون ويدّعون على أنفسهم بالويل والثبور لا أحدَ يقول لهم : ويلكم . إنما يقولونها هم لأنفسهم وهذا بيان للحسرة على ما فاتهم .

والمعنى : يا ويلنا احضر ، فهذا أوانك لأن الأمر فوق ما نحتمل ، ولا نستطيع دفعه ، والإنسان حين يُفاجأ بفساد رأيه يعود على نفسه باللوم ، قد يضربها ويعذبها .

وعجيبٌ منهم أنْ يقولوا الآن ﴿ مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ فيعترفون بأن الموتَ كان مجرد مَرْقد ، والمرقد لا بُدَّ بعده من يقظة . فيرد عليهم ﴿ هَٰذَا ﴾ أي : ما ترونه من أمور القيامة ﴿ مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ ، ويجوز أنْ يكون اسمُ الإشارة ﴿ هَٰذَا ﴾ إشارة إلى ﴿ مَّرْقَدِنَا ﴾ في ﴿ مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [ يس ]

الحــق سبحانه أخبر أنه جامعُ الناس ليوم لا ريبَ فيه ، وأن مَنْ أفلت من عقوبات الدنيا وعذاب الحياة التي يعيشون فيها ، فإن الله مُدَّخر له عذاباً من نوع أشد ، لأن الذين قاموا بالدعوة إلى الله أول الأمر واضطهدوا وأُوذوا ، منهم مَنْ مات في الاضطهاد قبل أن يرى انتصار الإسلام وغلبة المسلمين ، وقــبل أن يرى انتقام الله من أعدائه ، فإذا كان الأمرُ كذلك فلا بُدَّ أن يُري الله هؤلاء المؤمنين عاقبة الكافرين وما نزل بهم من العذاب .

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

[ يس ] فإذا هنا فجائية ، فبمجرد الصيحة أُحضروا جميعاً رغماً عنهم وبدون اختــيارهم ، ومُحضر اسم مفعول من أحضر . يعني : أُجبر على الحضور والمُثول بين يدي الله للحساب .

وهــذا في حَدِّ ذاته آيةٌ من آيات الله سبحانه وتعالى ، يقول ربُّ العزة ســـــبحانه : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [ الروم ] فحين يسمع الموتى هذه الصيحة يهبُّون جميعاً أحياء ، فإذا هنا الفجائية الدالة على الفجأة ، وهذا هو الفــارق بــين ميلاد الدنيا وميلاد الآخرة ، فميلاد الدنيا لم يكُنْ فجأة بل على مَهــل ، فالمرأة قبل أن تلد نشاهد حملها عدة أشهر ، وتعاني هي آلام الحمل عدة أشهر فلا فجأة إذن .

ويوم القيامة هو أيضاً يوم الجمع ، يُجمع له الناس ، يقول ربُّ العزة :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ

أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾ [ النساء ]

فالمؤمن يعتقد أن يوم القيامة لا شكَّ فيه ، فيوم القيامة يجب منطقياً ألا يوجد شكٌّ فيه ، لأنه لو كان هناك ريبٌ فيه لكان الذين انحرفوا في الحياة الدنيا وولغُوا في أعراض الناس ، وأخذوا أموال الناس ، وعاثوا في الأرض فساداً هم الذين كسبوا وفازوا ، ويكون الطيبون والأخيار قد عاشوا في سذاجة .

فالمنطق يقتضي أنه ما دام قد وُجدَ أناسٌ قد ظلموا واعتدوا ، وأناسٌ أُعتدي عليهم ، فلا بُدَّ أن يكون هناك حسابٌ ، ولا يكون هناك حسابٌ إلا إذا انتهتْ حكاية الموت ، بالإحياء والحشر والخروج إلى لقاء الله .

ودليلُ هذا من الجاحدين أنفسهم ، كيف ؟

نحن نعرف أن المجتمعات غير المتدينة يضع قادتُها القوانين التي تكفل حماية حركة المجتمع ، هم يضعون مثل هذه القوانين ، ومَنْ يخالفها يتم حسابه وعقابه ، فإذا كان العقابُ يمنع المجاهرةَ بالجريمة ، فماذا يكون الموقف ؟ إن الماهر إذن هو مَنْ يفلح في المداراة عن عيون قادة هذا المجتمع ، ويستر نفسه عنهم حتى لا يناله العقاب .

إن هذه المجتمعات الملحدة تضع القوانين لحماية نفسها ، فماذا تفعل هذه المجتمعات في الذين ستروا أنفسهم ؟ هم بقانون هذه المجتمعات كان يجب أن يعاقبوا ، وكان يجب أنْ تقولوا أنتم إنَّ هناك مكاناً آخر وداراً أخرى يتم فيها عقابُ مَنْ أفلت منا .

فأنت أيها الملحد قد قننتَ لمَنْ خالف تقنينك عقوبة ، وهذا إنْ وقعت

[illegible] عليه يدك ، فما قولك فيمن لم تقع عليه يدك ؟

[illegible] الرحيم الذي يجمعنا للحساب يوم القيامة الذي لا ريبَ فيه ولا [illegible] ، ويحشر جميعاً مدفوعين إلى ذلك اليوم ويأتي الكافر على رغم أنفه ، [illegible] رحمة الله وفضله ويفرح بلقاء ربه .

[illegible] في هذا اليوم يكون من عدة وجوه : البعث حيث يجمع بين [illegible] ، ويجمع الملائكة في الملأ الأعلى بالبشر ، ويجمع الظالم [illegible] والمتبوع .

[illegible] يوم الحساب ، فيحشر الله عزّ وجلّ الناس كل الناس [illegible] للحساب ، كما في الحديث القدسي الذي نحن بصدده : (( **أقيمُوا عبدي هذا موقوفا على أطْراف أنَامل أقْدَامهمْ للْحسَاب** )) .

[illegible] وصف الحقُ نفسه بأنه سريعُ الحساب ، فقال : ﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ** ﴿١٩﴾ **[ آل عمران ]** فالحق سبحانه يحذرك [illegible] ليستيقظ حسه ، لماذا لأنه من الجائز أن يأتي لك الحساب من الله في [illegible] وهب أن الله لم يبتل هذا الإنسانَ ببلاء كبير في الدنيا ، فإن هذا الإنسانَ [illegible] الحساب العسير في الآخرة .

[illegible] يقول قائل : إن الحساب في الدنيا قد يُؤجله الله إلى الآخرة ، والعلامات الصغرى للقيامة نحن في مراحلها ، وما زالت العلامات الكبرى [illegible] القيامة لم تظهر .

لمثل هذا القائل نقول : هناك فرقٌ بين الحدث في ذاته وبين الحدث

فيمَنْ يُجرى عليه الحدث ، هناك فرقٌ بين أن تقوم القيامةُ على الناس جميعاً ، وبين أنْ تُختصر حياة الإنسان بحادثى ليست في حسبانه ، فقد تأتي له حادثة فورية تنقله فجأة إلى سريع الحساب .

إن استبطأ إنسانٌ الحساب فعليه أن يعرفَ أن الآخرة قد تجيء له أسرعَ من مسائل الدنيا فالإنسانَ لا يقدر على أن ينقل إليه من يريد في أيِّ وقت .

وهكذا تكون الآخرة بالنسبة للمستبطيء للحساب أسرعَ من حساب الدنيا ، وكلمة ﴿ٱلْحِسَاب﴾ كلمة تُطمئن المؤمن إلى أن الله قائمٌ بالقسطْ لا يتخلى حتى عمَّن كفر به أو عصاه ، إن كل إنسان يأخذ ماله ويدفع ما عليه .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ ﴾ [ إبراهيم ] والجزاء أمرٌ طبيعي في الوجود ، وحتى الذين لا يؤمنون بإله ، ويديرون حركة حياتهم بتقنينات من عندهم قد وضعوا لأنفسهم قوانين جزاء تحدد كل جريمة والعقاب المناسب لها .

وبطبيعة الحال لا يكون أمراً غريباً أن يضع خالقُ الكون نظاماً للجزاء ثواباً وعقاباً ، ولو لم يضع الحقُ سبحانه نظاماً للجزاء بالثواب والعقاب لَنَال كل مفسد بُغْيته من فساده ، ولأحسَّ أهل القيم أنهم قد خُدعوا في هذه الحياة .

وما دام الجزاء أمراً طبيعياً فلا ظلمَ فيه إذن ، لأنه صادر عَمَّنْ قال : ﴿ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾ [ غافر ] فلا نجامل صاحب الحسنة ، ولا نظلم صاحب السيئة .

و لا يجازي الحق سبحانه الجزاء العنيف إلا على الجريمة العنيفة ، والجزاء إنما هو بما كسبتْ كلُّ نفس ﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ ﴾ [ إبراهيم ] يعني أن المؤمن أو الكافر سيلقى جزاء ما فعل إنْ ثواباً أو عقاباً .

والكسب كما نعلم هو أن تأخذ زائداً عن الأصل ، فأنت حين تحرم نفسك من شيء في الدنيا ستأخذ حزاءً هو الثواب وما يزيد عن الأصل ، ومن كسب سيئة سيأخذ عقاباً عليها ، ويُقال : كسب السيئة . ولا يُقال : اكتسبها . ذلك أن ارتكابه للسيئة صار دُرْبة سلوكية ، ويفرح بارتكابها ، ولا بُدَّ إذن من الجزاء ، والجزاء يحتاجُ حساباً ، والحساب يحتاج ميزاناً .

والحق سبحانه يُطمئن عباده فيقول : ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [ الأعراف ] ، فوزن الأعمال إبطالٌ لحجة الذين يخافون النار ولم يُؤدوا حقوقَ الله في الدنيا ، وكلُّ ذلك يؤكد الحجة ويُظهر الإنصاف ويقطع لعذر .

وهو مقتضى قوله هنا : (( **يَا عبادي أَحْضِرُوا حُجَّتَكُمْ ، وَيَسِّرُوا جَوَابَكُمْ فَإِنَّكُمْ مَجْمُوعُونَ مُحَاسَبُونَ مَسْئُولُونَ** )) فوزن أعمالكم عليكم واقع لا مفرَّ منه فأعدّوا أنفسكم للحساب ، وأحضروا حُجتكم وبرهانكم ، ولكن لا تخشوا فالله يقول : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [ الأنبياء ]

فهذه الموازين هي عَيْنُ العدل ، وليستْ مجرد موازين عادلة ، بل تبلغ دقـــة موازين اليوم الآخر أنها هي عَدْلٌ في ذاتها . فالقسط صفةٌ للموازين ، وهـــي مصدر بمعنى عدل ، كما تقول في مدح القاضي : هذا قاض عادل . أي : موصوفٌ بالعدل ، فإذا أردتَ المبالغة تقول : هذا قاض عدل ، كأنه هو نفسه عَدْل أي : معجون بالعدل ، لذلك نقول في أسماء الحق سبحانه : الحكم العدل . ولا نقول : العادل .

فمـــوازينُ الله غيـــر مـــوازين البشر ، فموازين البشر قد يحدث فيها اخـــتلاف ونـــرى بعض التجار ينقصون الميزان بأنْ يضعوا شيئاً تحت كفة الميزان أو غير ذلك من الخُدع ، لكن الحقَّ هو العادل الحق ، وهو صاحب الميزان الأعدل ، فالعدل عند الله أكثر دقة وله مُطلق الدقة .

وفـــي موضـــع آخر يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ ﴾ [ الرحمن ] فهل هي موازين متعددة أم هو ميزان واحد ؟

الخلق جميعاً سيُحاسبون مرة واحدة ، فلن يقفوا طابوراً ينتظر كلٌّ منهم دوره ، بـــل ســـيقفون صفوفاً كما ذكر الحديث القدسي هنا (( **أقيمُوا عبَادي صُـــفُوفاً** )) فيُحاسبون جميعاً في وقت واحد ، لذلك لمَّا سُئلَ الإمام علي كرَّم الله وجهـــه : كـــيف يُحاســـب اللهُ الخلقَ جميعاً في وقت واحد ؟ قال : كما يرزقهم جميعاً في وقت واحد . فالمسألة صعبةٌ بالنسبة لك ، أما بالنسبة للحق سبحانه فهي سهلةٌ ميسورة .

ومسألة الموازين هذه من المسائل التي وجد فيها المستشرقون تعارضاً فـــي ظاهـــر الآيـــات ، فجعلوا منها مأخذاً على كتاب الله ، من ذلك قولهم

بالتناقض بين الآيتين : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [ الأنبياء ] وقوله تعالى : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [ الكهف ] حيث أثبت الميزانَ في الأولى ، ونفاه في الثانية .

فهؤلاء لا يملكون الملَكة اللغوية التي تُمكِّنهم من فهم كلام الله ، ولو تأملنا اللام في ﴿ نُقِيمُ لَهُمْ .. ﴿١٠٥﴾ ﴾ [ الكهف ] لانْحَلَّ هذا الإشكال ، فاللام للملك والانتفاع ، كما يقولون في لغة البنوك : له وعليه . والقرآن يقول :

﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [ البقرة ]

فمعنى ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [ الكهف ] أي : وزناً في صالحهم ، إنما نُقيم عليهم وندينهم ، كذلك نجد أن كلمة الوزن تُستعمل في اللغة : إما لوزن المادي أو لوزن المعنى ، كما نقول : فلانٌ لا وزنَ له في الرجال .

وعلى هذا يكون المعنى : أنهم لا وزنَ لذواتهم ومادتهم ، إنما الوزن لأعمالهم ، فلا نقول : كان من الأعيان ، كان أصله كذا وكذا ، وهذه المسألة واضحة في قصة ابن نوح عليه السلام : ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [ هود ] فالبُنوة هنا بُنوَّة عمل وإيمان ، لا بُنوة ذات .

وقد ظنَّ الكفار والعصاة أن لهم وزناً عند الله ، ومنزلة ستكون لهم في الآخـرة ، كما كانت لهم في الدنيا ، كما جاء في قصة صاحب الجنتين الذي قال لأخيه متباهياً مفتخراً :

﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [ الكهف ]

لكـن هـيهات أنْ يكـون لهـم وزنٌ في الآخرة ، فالوزنُ في القيامة للأعمال لا للأعيان . إذن : المعنى لا نقيم لذواتهم إنما نزن أعمالهم ، لذلك قال النبي ﷺ لقرابته : (( لا يأتيني الناسُ بأعمالهم ، وتأتوني بأحسابكم )) (١)

وقال ﷺ : (( يا فاطمة بنت محمد ، اعملي فإنِّي لا أُغني عنك من الله شيئاً )) (٢)

فالذوات والأحساب والأنساب لا قيمةَ لها في هذا الموقف ، بل الأعمال هي مقياس التفاضل والجزاء ، ولن يظلم اللهُ أحداً مثقال ذرة ، يقول تعالى :

﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [ الأنبياء ]

أي : لهم أو عليهم ، فإنْ كانت لهم علموا أن اللهَ لا يظلمهم ، ويبحث

---

(١) عن أبي هريرة أن رسول الله قال : (( إن أوليائي يوم القيامة هم المتقون ، وإنْ كان نسبٌ أقرب من نسب ، لا يأتي الناسُ بالأعمال وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم ، وتقولون : يا محمد ، فأقول هكذا ، وأعرض في عطفيه )) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة ( ١ / ٩٤ ) .

(٢) عـن حذيفـة قال : جئتُ إلى النبي ﷺ والعباس جالسٌ عن يمينه وفاطمة رضي الله عـنها عـن يساره . فقال : (( يا فاطمة بنت رسول الله ، اعملي لله خيراً ، فإني لا أغنـي عنك من الله شيئاً يوم القيامة )) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ( ١ / ٤٩ ) وعزاه للبزار

لهـم عن أقلّ القليل من الخير ، وإنْ كانت عليهم علموا أن الله يستقصي كل شـيء فـي الحساب ، وحبة الخردل تدل في صغرها على الحجم ، وكلمة مثقال تدل على الوزن ، فجمع فيها بين الحجم والوزن .

ثم يعقِّب الحق سبحانه على هذه المسألة : ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [ الأنبـياء ] فـلا أحدَ يجيد هذه المسألة ويُدقِّقها كما نفعل نحن ، فليستْ عندنا غفلة ، بل دقة وضبط لمعايير الحساب .

ولا تظن أن مسألةَ الحساب والميزان مسألةٌ سهلة يمكن أن تصلَ فيها إلى الدقة الكاملة ، مهما أخذت من وسائل الحيطة ، فأنت بشر لا تستطيع أن تـزن الـوزن المـضبوط لأن المعيار الحديد الذي تزن به عُرْضةٌ للزيادة والنقصان .

فقـد يتراكم عليه الغبار ويقع عليه مثلاً نقطة زيت ، وبمرور الوقت يـزيد المعـيار ولو شيئاً ضئيلاً ، وهذا في صالح المَوزون له ، وقد يحدث العكـس فيـنقص الميزان نتيجةَ الملامسة للأشياء ، ولك أن تنظر مثلاً إلى (أكـرة ) الـباب تراها لامعة على خلاف ما حولها . إذن : أي ملامسة أو احتكاك للأشياء يُنقصها .

حتـى فـي المـوازين الحديثة التي تضمن لك أقصى درجات الدقة ، فبشرية الإنسان لا يمكن أن تعطي النقة المتناهية ، وهذا معنى ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [ الأحـزاب ] ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [ الأنبـياء ] لأن معياره تعالى لا يختلف ، ولا ينسى شيئاً ، ولا يغفل عن شيء .

حتى أنهم يقولون ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [ الكهف ] أي : لا يترك كبيرة أو صغيرة إلا عدَّها وحسبها ﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [ الكهف ] فكل ما فعلوه مُسجَّلٌ مُسطَّرٌ في كتبهم ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [ الكهف ] لأنه سبحانه وتعالى عادل لا يُؤاخذهم إلا بما عملوه .

﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [ الكهف ] فوجئوا بما لم يُصدِّقوا به ولم يؤمنوا به . وما عملوه سيجدونه مُسطراً في كتبهم ، ويُقال لكل واحد منهم : ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [ الإسراء ] فالحق تبارك وتعالى يُصوِّر لنا موقفاً من مواقف يوم القيامة ، حيث يقف العبدُ بين يديْ ربِّه عزَّ وجلَّ ، فيدعوه إلى أنْ يقرأ كتابه بنفسه ، ليكون هو حُجة على نفسه ، ويُقرّ بما اقترف ، والإقرار سيد الأدلة .

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [ آل عمران ]

فهذا موقفٌ لا مجالَ فيه للعناد أو المُكابرة ، ولا مجالَ فيه للجدل والإنكار ، فإن حدث منه إنكار جعل اللهُ عليه شاهداً من جوارحه ، فيُنطقه الحق سبحانه بقدرته :

يقول تعالى : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ النور ]

فالحق سبحانه وتعالى خلق الإنسان ، وجعله سيدَ هذا الكون ، وسخَّر لـــه كـــلَّ شـــيء ، ومما سخَّر له سخَّر أبعاضه لإرادته ، فسخَّر مثلاً لسانه لإرادته ، فإنْ كان مؤمناً قال : الله واحد . وإنْ كان غير ذلك قال : الله ثالثُ ثلاثة . كذلك سخَّر له العينَ تنظر إلى ما أحلَّ وإلى ما حرَّم ، كذلك الرِّجْل .

فكـــلُّ جـــوارحك سخَّرها اللهُ لك إنْ أردتَ منها طاعةً أطاعتْ ، وإن أردتَ منها معصيةً عصتْ ، فالإرادةُ هي التي تُملي ما تريده ، والجوارح لا تملك إلا أنْ تنفذ طاعة أو معصية لأنها مُسخَّرة .

ونمـــثِّل لذلك بالقائد الأعلى لجيش حين يرسل مثلاً القائد الأدنى على رأس كتيبة في مهمة ما ، فعلى الكتيبة أن تطيعَ أمر هذا القائد المباشر طاعةً عمـــياء ، حتـــى لـــو كانـــت هذه الأوامر في غير صالحهم ، وليس لهم أن يعترضـــوا عليه ، حتى إذا ما عادوا إلى القائد الأعلى اشتكوْا له ما كان من قائدهم المباشر ، كذلك طاعةُ الجوارح لإرادة الإنسان في الدنيا .

أمـــا في الآخرة فسوف تُسْلب منه هذه القيادةُ لجوارحه ، وسوف تشهد هذه الجوارح على صاحبها أمام الحق العلىِّ سبحانه ، ففي الآخرة لا سلطانَ لأحد إلا الله . ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ غافر ]

ويقول سبحانه : ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [ فصلت ]

فهم يتعجَّبون كيف تشهد عليهم جلودهم وهي منهم ، والسؤال هنا كان ينبغـــي أن يكونَ عن الكيفية : كيف شهدتُم علينا ؟ لا عن السبب ، فالسؤال

بهذه الصيغة غيرُ وارد ليدلّ هذا على التضارب في الكلام .

وكان الجواب ﴿ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [ فصلت ] فالسؤال عن شيء والجواب عن شيء آخر ، فلو أجابوا عن السؤال : لم شهدتم علينا . لقالوا : شهدنا عليكم ، لأننا أقوى حارس عليك في جميع الأوقات .

﴿ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [ فصلت ]

يعنـــي : الأمر ليس بملكنا فنحن لم نشهد من عندنا ، فستنطق الأرجل والجلـــود وتشهد ، لأنها كانت في الدنيا مقهورة لإرادتي ، كنت أقول ليدي : افعلي كذا . ولرجلي : اسعي كذا . وللساني : سُب فلاناً .

فـــالله سخّر الجوارح وأمرها : يا جوارح أنت خاضعةٌ لإرادة صاحبك في الدنيا ، لكن في يوم القيامة : أيكون لي إرادةٌ على جوارحي ؟ لا ستتمرد علـــيَّ جوارحي ، وتقول لنا : أنتم استخدمتمونا في الدنيا وحملتمونا أن نفعل أشياء نحن نكرهها .

فبـــيده يـــضرب ويعتدي ، وبيده ينفق ويقيل عثرة المحتاج ، وبرجْله يسعى إلى بيت الله ، أو يسعى إلى مجلس الخمر والفساد .

ولكـــن فعل جوارحك ما تأمرها به ليس دليلاً على الرضا عنك وعمَّا تأمـــرها بـــه ، بـــل هي تفعل ما تريده أنت وهي كارهةٌ ولاعنة له ، وهي مُبْغـــضةٌ لـــك ولفعلك ، فإذا كان يوم القيامة انحلَّتْ من إرادتك وخرجتْ من سيطرتك ، وشهدتْ عليك بما كان منك .

فكـــأن جـــوارح الإنـــسان تقول له يوم القيامة : لقد أتعبتني في الدنيا وأكرهتنـــي على فعل أشياء لم أكُنْ لأفعلها لأنني عابدةٌ مُسبِّحة لله ، وإن ما

أمرتني به يخرج عن طاعة الله عز وجلَّ .

فمادة الإنسان خاضعةٌ لإرادة صاحبها في دنيا الأغيار ، فإذا انتقل إلى الآخـــرة فـــلا تأثيـــرَ له على المادة ، وتتحرر المادةُ من طاعة صاحبها في المعـــصية وتتمـــرد علـــيه ، وتـــشهد على صاحبها بأنه كان يستخدمها في المعصية .

فالجوارح تنطق لتقيم الحجة على أولئك المذنبين ، وسؤال المذنبين عن كيفـــية وقوع النطق لا لزومَ له ، لذلك نجدهم يسألون جوارحهم : لمَ شهدتم عليـــنا ؟ لأن الجوارح كانت هي أدوات المذنبين في ارتكاب الجرائم ، لأن اليد هي التي امتدت لتسرق ، واللسان هو الذي نطق قَولَ الزُّور ، والقلب هو الذي حقد ، والساق هي التي مشتْ إلى المعصية .

والإنـــسان كمـــا نعلم مُركَّب من جوارح ، وهذه الجوارح لها أجهزة تُكوِّن الكل الإنساني ، ومدير كل الجسم هو العقل ، فهو الذي يأمر اليد لتمتدَّ وتسرق ، أو تمتد لتُربِّت على اليتيم ، والعين تأخذ أوامرها من العقل ، فإما أنْ يأمـــرها بـــأنْ تنظرَ إلى جمال الكون ، وتعتبر بما تراه من أحداث ، أو يأمرها بأنْ تنظر إلى الحرام .

إذن : الجـــوارح خادمـــةٌ مطيعة مُسخَّرة لذلك الإنسان وإرادته ، لكن الأمـــر يختلف في الآخرة ، حيث لا أمرَ لأحد إلا الله ، فالجوارح تقول يوم القـــيامة لأصحابها : كنا نفعل ما تأمروننا به من المعاصي رغماً عنا ، لأننا كنا مُسخَّرين لكم في الدنيا ، والآن انحلَّتْ إرادتكم عنا فقلنا ما أجبرتمونا على فعله .

فدعونا اليوم لنشهد ، إنها تُخرج أسرارها لأن المُلْك الآن للواحد القهار : ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ غافر ] انتهت سيطرة الإنسان وليس لأحد غير الله إرادةٌ على الأبعاض .

لذلك يُقال للإنسان : ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [ الإسراء ] أي : كفانا أنْ تكون أنت قارئاً وشاهداً على نفسك ، فكتابك حجة عليك ، فها هو تاريخك ، وها هي قصتك ، ليس كلاماً من عندنا ، وإنما هو فعلك والحجةُ عليك .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [ المؤمنون ] فالمراد هنا كتاب أعمالنا الذي سجّل فيه كل شيء قدَّمته الأيدي ، لكن : ما الحكمةُ من تسجيل الأعمال ؟ وهل يكذّب العباد ربهم عزَّ وجلَّ فيما سُجِّلَ عليهم ؟

قالوا : الحكمة من تسجيل الأعمال أن تكون حجةً على صاحبها وليعلم أن الله ما ظلمه شيئاً ، لذلك سيقول له ربه : ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء ] يعني : بنفسك حتى تُقام عليك الحجة ، ولا يكون عندك اعتراضٌ .

فهل للإنسان قدرةٌ على الردِّ رغم أن الله عزَّ وجلَّ يقول هنا في الحديث القدسي : (( **يَا عِبَادِي أَحْضِرُوا حُجَّتَكُمْ** )) .

فهذا يوم السؤال ، يوم نُسأل عما فعلنا ، يقول تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [ الحجر ]

ويقول الحق سبحانه عن موقف السؤال هذا : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [ الصافات ] أي : احبسوهم للسؤال والحساب ، وهذا السؤال سيكون فردياً ليس جماعياً ، فكلُ واحد مهم سيُسأل وسيُناقش . قالوا : في السؤال تبكيتٌ النفس للنفس قبل أنْ يُبكِّتهم الله . يعني ساعة يُعاينون البعث وموقف الحساب يُبكِّتون أنفسهم ، ويندمون ساعة لا ينفع الندم .

وكلمة موازين جمع ميزان ، وهو آلة نُقدِّر بها الأشياء من حيث كثافتها ، لأن التقدير يقع على عدة أشياء : على الكثافة بالوزن ، وعلى المسافات بالقياس .. الخ ، وقد جعلوا لهذه المعايير ثوابت ، فمثلاً : المتر صنعوه من البلاتين حتى لا يتآكل ، وهو موضوع الآن تقريباً في باريس ، وكذلك الياردة ، وجعلوا للوزن معايير من الحديد : الكيلو والرطل .. الخ .

كما جاء في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [ الزمر ]

---

أما المؤمن الواثق فهو يُهرول إلى آخرته مُشتاقاً لوجه ربه .

وربُّ العزة سبحانه وتعالى يقول هنا في الحديث القدسي :

(( أَقيمُوا عبَادي صُفُوفاً عَلَى أَطْرَاف أَنَامل أَقْدَامهمْ للْحسَاب ))

ولك أن تتصوَّر المعاناة والألم الذي يجده مَنْ يقف على أطراف أنامل

قدميْه ، لأن ثقلَ الجسم يُوزَّع على القدمين في حال الوقوف ، وعلى المقعدة في حال الجلوس ، وعلى الجسم كله في حال النوم ، وهكذا يخفّ ثقل الجسم حسب الحالة التي هو عليها ، فإنْ تركَّز الثقل كله على أطراف أنامل القدمين فلا شكَّ أنه وضعٌ مؤلمٌ وشاقٌّ يصعب على الناس ، حتى إنهم لَيتمنوْنَ الانصراف ولو إلى النار .

والحق سبحانه وتعالى يبرز لنا هذا الموقف في قوله تعالى : ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [ الكهف ]

فالعرْض على الله سبحانه لا يستطيع فيه أحدٌ التخفي ، ولن يكون لأحد منه مفرٌّ ، وهم واقفون صفوفاً متداخلة بطريقة لا يُخفي فيها صفٌّ الصفَّ الذي يليه ، فالجميع واضحٌ بكل أحواله .

فالعرْض أن يستقبل العارضُ المعروضَ استقبالاً مُنظَّماً يدل على كل هيئاته ، كما يستعرض القائدُ الجنودَ في العرض العسكري مثلاً ، فيرى كل واحد من جنوده ﴿ صَفًّا ﴾ أي : صفوفاً منتظمة ، حتى الملائكة تأتي صُفوفاً كما قال تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ [ الفجر ]

ثم يقول تعالى : ﴿ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [ الكهف ]

أي : على الحالة التي نزلتَ عليها من بطن أمك عرياناً ، لا تملك شيئاً حتى ما يستر عورتك ، وقد فُصِّلَ هذا المعنى في قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [ الأنعام ]

أي : أن كـلاًّ منكم يأتي إلى الله فَرْداً عما كان له في دُنياه من مال أو ولد أو أتباع ، جاء كلٌّ منهم لله وليس معه الأصنام التي ادَّعى أنها شركاءُ لله ، واتخـذهم شفعاءَ له . و(( فرادى )) جمع (( فرْدان )) أو فريد ، مثل سكارى جمـع سكران ، وأسارى جمع أسير . إنهم يأتون إلى الله زُمراً وجماعات ، ولكن كلاًّ منهم جاء منفرداً عما كان له في الدنيا من مال وأهل وولد وأتباع ، بدليل أنه قال : ﴿ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [ الأنعام ]

وهم حين يُفاجَأون بالنفخ في الصُّور ، وتداهمهم القيامةُ بأهوالها التي كانوا غير مؤمنين بها على الحقيقة ، بُهتوا ودُهشوا ، وخرستْ ألسنتهم عن الكـلام مـن شدة دهشتهم ، كيف وما كانوا ينكرونه ماثلٌ أمامهم فجأة ، ثم يـتدرجون مـن هذه الحالة إلى أن يأخذوه أمراً واقعاً لا مفرَّ منه ، فيبدأون بالكلام ، ويسأل بعضهم بعضاً عَمَّا هم فيه ، وعمَّا نزل بهم .

لا يـستطيع أحـد منهم الكلام في هذا الموقف إلا بإذنه سبحانه ، قال تعالـى : ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [ هود ]

وهـنا في هذا الحديث القدسي يقول : (( **يَا عِبَادِي أَحْضِرُوا حُجَّتَكُمْ ، وَيَسِّرُوا جَوَابَكُمْ** )) .

ولكنهم على الحقيقة لن يتكلموا إلا بإذن منه سبحانه ، رغم أنهم كانوا يستكلمون في الحياة الدنيا بطلاقة القدرة التي منحهم إياها الله سبحانه ، حين أخضع لهم جوارحهم ، وجعل الحقُّ سبحانه الجوارحَ مؤتمرةً بأمر الإنسان ، وشاء سبحانه أنْ يجعل بعضاً من خَلقه نماذجَ لقدرته على سلب بعض تلك الجوارح ، فتجد الأخرسَ الذي لا يستطيع الكلام ، وتجد المشلولَ الذي لا يستطيع الحركة ، وتجد الأعمى الذي لا يبصر ، وغير ذلك .

وبتلك النماذج يتعرف البشر على حقيقة واضحة هي أن ما يتمتعون به من سيطرة على جوارحهم هو أمر موهوب لهم من الله تعالى ، وليست ذاتية فيهم .

وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ .. ﴾ [ هود ] يُبيِّن لنا سبحانه تسخير الجوارح لطاعتنا في الدنيا ، فهي ترضخ لإرادتنا ، لأنه سبحانه شاء أنْ يُسخِّرها لأوامرنا ولانفعالاتنا ، ولا أحدَ فينا يتكلم إلا في إطار الإذن العام للإرادة أنْ تنفعلَ لها الجوارحُ .

وقد يسلب اللهُ سبحانه هذا الإذن فلا تنفعل الجوارحُ للإرادة ، فتجد الحق سبحانه يقول في آية أخرى : ﴿ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [ النبأ ]

وليس هذا فقط ، فإن الحق سبحانه يبعث الناسَ يوم القيامة حُفاةً عُراةً غُرْلاً ، وقد نطق بهذا حديثُ رسول الله ﷺ عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (( يبعث اللهُ الناسَ يوم القيامة حُفاة عُراة غُرْلاً . فقالت عائشة : يا رسول الله .. فكيف بالعورات ؟ قال : لكلٍّ امريء منهم

يومئذ شأنٌ يغنيه )) [1]

وقد أصاب هذا القولُ السيدةَ عائشة بالاستغراب والذهول ، فهي رضي الله عنها عندما سمعت سيدنا رسول الله وهو يُحدِّثهم عن القيامة ، ويذكر أن الشمس تدنو من الرؤوس ، والخَلْق يقفون عرايا ، استاءتْ وسألتْ رسول الله : كيف يقف الناسُ عرايا ينظر بعضُهم إلى عورة بعض ؟

فأجابها رسول الله ﷺ أن كلَّ امريء مشغولٌ بنفسه ، وأن الأمرَ أعظمُ من أن ينظرَ أحدٌ لعورة أحد في قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [ الكهف ]

فالعرْض على الله سبحانه لا يستطيع فيه أحدٌ التخفي ، ولن يكون لأحد منه مفرٌّ ، وهم واقفون صفوفاً متداخلةً بطريقة لا يُخفي فيها صفٌّ الصفَّ الذي يليه ، فالجميع واضحٌ بكل أحواله .

فكان ردّ رسول الله ﷺ أن الأمر أخطر وأكبر من أن ينظرَ الناسُ إلى بعضهم البعض ، فكلٌّ منهم مشغولٌ بما ينتظره من حساب ووزن لأعمالهم والاطلاع على كتاب الحسنات والسيئات والسير على الصراط .

لكل منهم ما يشغله ، أنْ ينجوَ من النار حتى ولو بالزحزحة عنها ،

---

(١) أخرجه النسائي في سننه ( ٧ / ٢٢٤ ) كتاب البعث ، وأحمد في مسنده ( حديث ٢٣٤٤٧ ) من حديث عائشة رضي الله عنها .

وأن يـــدخل الجنة ولو وراء بابها ، ولو في موضع سوط ( كرباج ) منها ، فهو خيرٌ من الدنيا وما فيها .

يقول الحق تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. ﴿١٨٥﴾ ﴾ [ آل عمـــران ] فالفوز في الآخرة ليس على درجة واحدة ، ولكن على درجتـــين ، أولـــى درجـــات الفـــوز أن يُزحزح الإنسانُ عن النار ولو إلى الأعـــراف وهذا فوزٌ عظيم ، يكفي أنك تمرّ على الصراط المضروب فوق النار وترى ما فيها من ألوان العذاب ، ثم بعد ذلك تنجو من هذا الهَوْل كله .

يكفـــي ذلك ليكون فوزاً عظيماً ، لأن الكافرَ في هذه اللحظة يتمنى لو كـــان تراباً حتى لا يدخلَ النارَ ، فمرور المؤمن فوق الصراط ورؤيته للنار نعمـــةٌ لأنه يُحسُّ بما نجا منه ، فإذا تجاوز النارَ ودخل إلى الجنة لينعم فيها نعيماً خالداً كان هذا فوزاً آخر .

لـــذلك حرص اللهُ تبارك وتعالى أنْ يعطينا المرحلتين ، فلم يَقُلْ : مَنْ زُحـــزح عـــن النار فاز ، ولم يقل : من أُدخل الجنةَ فاز . بل قال : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. ﴿١٨٥﴾ ﴾ [ آل عمران ]